



د. محمد الجارالله *

صناعة الرأي العام... من سيكولوجية القطيع إلى دكتاتورية خوارزميات الذكاء الاصطناعي

حتى تصبح هي «المعيار الجديد» في ذهن الجيل الناشئ. وبذلك، نجد أنفسنا أمام استعمار من نوع جديد؛ استعمار لا يطلب الأرض، بل يطلب السيطرة المطلقة على مراكز الإدراك والتحكم في ردود الأفعال، مما يجعل السيادة الوطنية مهددة في جوهرها المعرفي والثقافي قبل أن تهدد في حدودها الجغرافية.

استعادة البوصلة... نحو استقلال العقل في زمن الذكاء الاصطناعي

إن مواجهة هذا الواقع ضرورة وجودية للدفاع عن حرية الإنسان العربي وسيادته الفكرية، وهذا يستدعي استراتيجية شاملة تبدأ بتعزيز الوعي النقدي لدى الأجيال الناشئة، ليدركوا أن ما يظهر على شاشاتهم هو واقع مُرتَّب وليس الحقيقة المطلقة. كما يجب على الدول العربية والإسلامية النظر إلى الخوارزميات والبيانات الضخمة كقضية أمن قومي، عبر تشريعات حازمة تفرض شفافية الخوارزميات، ونحمة البيانات النفسية لمواطنينا من التلاعب الخارجي الممنهج. ويتكامل ذلك مع دور الجامعات في طرح السؤال الأخلاقي حول من يراقب الخوارزمية، لضمان ألا يتحول الذكاء الاصطناعي إلى أداة للهيمنة المعرفية التي تمحو قضايانا العادلة من الوعي الإنساني.

الخطر الأكبر اليوم ليس في أن تملي علينا الخوارزميات ما نشترى، بل في أن نقرر لنا ما نصدق من أفكار. حين يتسلل التأثير الرقمي إلى الرغبات الدفينة، يصبح التحكم في الشعوب أعمق وأخطر من أي دعاية تقليدية. من سيكولوجية القطيع عند لوبون، إلى هندسة الموافقة عند بيرنيز، وصولاً إلى دكتاتورية الخوارزميات، يبقى الخطب التناغم واحداً: إنها معركة السيطرة على الوعي البشري. المعركة القادمة ستكون على العقل واستقلالته؛ فإما أن نستعيد بوصلة الوعي كفعل مقاومة، أو نترك الخوارزمية تمارس وصايتها الكاملة على أرواحنا، ففي زمن الذكاء الاصطناعي، قد لا تكون المعركة الأهم على من يملك القوة المادية، بل على من لا يزال يملك عقلاً حراً.

* وزير الصحة الأسبق

عبر الذكاء الاصطناعي الذي يتنبأ بردود أفعالنا قبل أن نشعر بها، مما يسلبنا القدرة على التأمل.

السيادة المعرفية... معركة العقل في زمن «الحارس الصهيوني»

تُستخدم الذاكرة التاريخية والهويات الجمعية كأدوات لتبرير السياسات وتشكيل الوعي العالمي. نرى ذلك بوضوح في صناعة الإسلاموفوبيا، وفي المقابل، التوظيف السياسي الانتقائي لبعض المحطات التاريخية كالهولوكوست ومحرقة اليهود لمنع أي نقد مشروع لسياسات الاحتلال الإسرائيلي الإجرامية، حيث تُستخدم المظلات الأخلاقية كدرع لحماية الجلاذ وتجريم الضحية. والأدهى من ذلك هو الانحياز البرمجي؛ فيما أن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة يهيمن على مفاصل القرار في كبريات الشركات التقنية، فإننا نجد أنفسنا أمام حارس بوابة رقمي يقرر ما هو حقيقة وما هو تضليل، فالمحتوى الذي يكشف الجرائم ضد الإنسانية في غزة وفسلمين يُصنّف برمجيًا كخطاب كراهية، بينما تفتح الأفاق للسرديات المشوهة. إنها دكتاتورية رقمية تملك القدرة على محور رواية شعب كامل بضغطة زر واحدة، وإعادة صياغة التاريخ وفق أهواء القوى المهيمنة على الفضاء الرقمي العالمي.

تزييف الوعي... حين تصبح الخوارزمية سلاحاً عابراً للقارات

إن الخطورة الحقيقية تكمن في أن هذه الأنظمة الذكية لم تعد مجرد أدوات تجارية، بل تحولت إلى أسلحة جيوسياسية عابرة للحدود تهدف إلى خنقة البناء القيمي للمجتمعات بعفاء العنصرية والإسلامية، فالذكاء الاصطناعي اليوم يمتلك القدرة على تحليل «المزاج الشعبي» في لحظات، ومن ثم ضخ سيل من المعلومات المضللة التي تخدم أجندات خارجية تحت ستار «التوصيات المقترحة». هذا التلاعب لا يغير المواقف السياسية فحسب، بل يمتد لبشمل تغيير المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية عبر تكرار صور وأنماط معينة

القيود التقليدية. لم يبع التبغ كمنتج يضر بالصحة، بل بيع كرمز للثورة والتمكين الذاتي. كانت تلك اللحظة هي الميلاد الفعلي لمفهوم «هندسة الموافقة»، حيث لا يتم فرض الرأي بالإكراه، بل يتم زرع الرغبة في نفس الإنسان لتبدو كأنها نابعة من إرادته الحرة، بينما هي في الواقع قرار مبرمج سلفاً في غرف صناعة الدعاية العالمية.

غرف الصدى... الهاتف حين يتحول إلى «إمام خفي»

انتقلت الخوارزميات بالتأثير إلى مستوى الجراحة المجهريّة التي تستهدف الفرد بحد ذاته. نحن اليوم أمام حالة من التقنيتين الممنهج للمجتمع؛ فالخوارزمية تعزل كل فرد داخل غرفة صدى مفصلة بدقة وفق بصمته الرقمية الفريدة واهتماماته التي يرصدها هاتفه على مدار الساعة. وعبر مراقبة أدق تفاصيل سلوكك، من مدة توقفك أمام صورة، إلى نوع الكلمات التي تستخدمها، يُبنى لك ملف نفسي وتوصيف دقيق يعرف نقاط ضعفك أكثر مما تعرفها أنت. هنا تتحول الخوارزمية إلى سلطة صامتة؛ هي الإمام الخفي الذي يراقب ويقترب ويوجه خياراتنا دون أن نرى، مما يغيب الواقع الموضوعي ويحوّل الاستقطاب الفكري إلى سيد المواقف والقرارات.

اقتصاد الغضب... لماذا تريح الخوارزميات من «تطريف» عقولنا؟

لقد اكتشفت شركات التكنولوجيا أن الغضب أكثر ربحية من التوازن، فالخوارزميات مصممة لهدف واحد هو تعظيم وقت البقاء والاندماج مع المنصة لضمان تدفق الإعلانات. وبما أن المشاعر السلبية مثل الخوف والكراهية تفرز هرمونات تضمن بعفاء المستخدم في حالة استنفار رقمي لفترة أطول، فإن هذه الأنظمة تتحاز هيكلياً لكل ما هو منطرف. هذا الانحياز يحول المجال العام من ساحة للتفكير العقلاني إلى حلبة صراع انفعالي دائم. نحن نعيش في ظل ثقافة الإشباع اللحظي التي تجعل الإنسان أسيراً للترند، وتحوّل الرغبات الإنسانية إلى مادة خام للإدارة الاجتماعية

يحدّر علماء الاجتماع من نظرية «هندسة الغواية» التي لا تستهدف إقناع العقل، بل استعمار الروح عبر الغريزة. إننا نعيش عملية «مسخ» نامعة، تذيب الوعي الفردي في سيكولوجية قطيع حديثة، لا تقاد اليوم بالعصا، بل بـ «الإعجابات» وخوارزميات الترشيح الصامتة التي تتسلل إلى أدق تفاصيل حياتنا. هذه الفكرة التي وضع حجر أساسها جوستاف لوبون، واتقن توظيفها جوزيف غوبلز في دعايته القائمة على تحويل التكرار الممنهج إلى حقيقة مطلقة، دخلت اليوم طوراً مرعباً يتجاوز أعنى الأنظمة الشمولية؛ إنه عصر «دكتاتورية الخوارزميات» والذكاء الاصطناعي الذي بات يعيد صياغة الوعي الجمعي دون أدنى مقاومة من الأفراد.

سدنة الصنم الرقمي: حين تذوب الهوية في «الروح الجمعية»

أوضح لوبون قديماً أن الفرد حين يذوب في الجمهور يتراجع حكمه العقلي، وتطغى عليه الروح الجمعية التي يسهل استئثارها عبر العاطفة والاندفاع، حيث يصبح الفرد جزءاً من كتلة لا تفكر، بل تستجيب للمؤثرات الخارجية. لكن التحول الأخطر جاء على يد إدوارد بيرنيز، الذي استلهم أفكار خاله سيجموند فرويد حول اللاوعي، لينتقل بالتأثير من مجرد فهم الجماهير إلى توجيهها بشكل علمي دقيق. أدرك بيرنيز أن الإنسان لا يُقاد بالمنطق وحده، بل بالمخاوف الكامنة، والرغبات المكبوتة، والحاجة الدائمة للقبول الاجتماعي، والتماهي مع الصورة التي يرسمها المجتمع المحيط به.

مشاعل الزيف... من «هندسة الموافقة» إلى استعمار الروح

ومن أشهر تطبيقاته حملة «مشاعل الحرية» في عشرينيات القرن الماضي. ففي زمن كان تدخين المرأة فيه مستهجناً، استغل بيرنيز صعود الحركة النسوية وربط السيارة بفكرة التحرر من سلطة الرجل وكسر